❖ من الأدب الشعبي والفصيح

1) من روح الغناء الشعبي الفلسطيني...

لا أراني مبالغا أن قلت بأني ممن يعتزون الاعتزاز كله بالغناء الشعبي الفلسطيني .

ويجدر بهذه المناسبة أن أميز بين البلدي والشعبي فقد صار من المألوف أن ينسب ما يسمعونه من أغان متناثرة مسجلة أو غير مسجلة متأثرة بالغنم الفارسي والتركي وغيرها من الانغام الشرقية، إلى ما يسمونه بالبلدي، وهذا غير الشعبي الذي يصدر عن روح شعبية تمثل الغناء الشعبي الفلسطيني خير تمثيل وتكاد تكون الطابع لاغانيه ويبدو ذلك جليا في المواسم السنوية التي تقام في طول البلاد وعرضها.

ومما يستلفت النظر ان الفلسطيني في أهازيجه يصبو دائماً إلى الفتوة أو النخوة أو الشهامة أو سمها ما شئت مستعينا في ذلك بنفس بدوى رشيق وصلابة جبلية متينة ولا عجب فالفلسطيني العربي جذوره في البادية وفروعه تطاول قمم الجبال مربوط بأصله البدوي ومعتز بفرعه الجبلي، اسمعه يهزج:

الزاد يحرم والأكل لو طاحت الخيل السهل

يا مير لو قرب الاجلمن هو للروح يردهـا

ولا تحلو تلك الأغاني بصوت متفرد بل يشترط فيها أن يدوى صاحبها بصوته مع صوت الجماعة فتمتزج الأصوات في هزج تتضاءل أمامه الانغام بقدر ما تبرز فيه قيمة الوحي الحماسي. اسمع الاهزوجة التالية:

يا راكبا هجن عسوف كره على البيدا وشوف

لعين مخضبة الكفوف الخيل علينا ردهـا

واللطيف ان هذه الأهازيج لو سرى عليها قانون العروض لوجدت أنها من مجزؤ الرجز وهو:

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

ولقد أجمع أهل العروض والخبيرون من أهل الذوق أن الرجز أيسر الأوزان مسايرة للسير والمشي، فكأن الفلسطيني في هذه الحالة يستعين بالرجز في أهازيجه وكأنها المارش الشعبي الذي يسير عليه، وكأن تلك الأهازيج هي أناشيده الشعبية.

وقد يحلو لأحدهم ان يفلت من انسجام الجمهرة كأن تهتز مشاعره مثلاً، فيصيح بأعلى صوته (مشوبش) على حد التعبير فيقول مثلاً:

لا تحسبونا خواجات ولا نبيع العطارة

حنا حماة المتاريس لو صار عالدار غاره

فيهب من خلفه هبة رجل واحد ملبين هتافه بمختلف الاستحسانات. ثم يسير الموكب يردد مختلف الأهازيع وبالوزن نفسه.

يا شيخنا دعنا نسير مهما كتب ربك يصير

تجيك علومنا يا الأمير كسارة الجمع الكثير

والاعتزاز بالشيخ والعقيد خلق توجبه حياة الجماعة وتقتضيه الروابط الاجتماعية ولكنه في نصر الجماعات أيضاً رمز حي تجسمت فيه مثل الجماعة العليا تحيطه بالعناية وتسير معه بروح الولاء والاعتزاز. اسمعهم في أهازيجهم يقولون:

يا شيخنا لما ركب والكل يطلع عليه

عدوه عمره ما كسب ينكسى وسخط الله عليه

وتبرز قيمة السيف في تلك الاهازيج حتى ليندر ان تخلو أهزوجة من كلمة سيف أو معناه، وقد أصبح من بدهياتهم في القول:

والحرب له درج درج والسيف مفتاح الفرج

وتلك طبيعة بدوية مردها فلسفة الصحراء في القول "ذل من لا سيف له".

ويلمس المرء روح النفرة في الأغاني الشعبية الفلسطينية حتى بات يقرن عزة النفس بالحياة وذلها بالموت:

يا بو جديلة تهلهل الموت خير من الذل

بل يرى في الموت خير ستر حين يقول:

والمذلة تعيينا

2) من روح الغناء العراقي الشعبي ....

أيها القارئ الكريم: إني من المولعين بالغناء العراقي، لاسيما الشعبي منه، ولا أريد أن أطيل عليك بمقدمات تمهيدية فأقول بأن الغناء العراقي الشعبي كسائر الأغاني الشعبية يمتاز بصدق العاطفة إلا أنه يفوق غيره بلجام الحشمة.

اسمع العراقي يقول:

حي تراني الناس وألبّي بيّ ثوب الصبر يا ناس ساتر عليّ

هكذا تكون الحشمة، وهكذا يكون الصبر، فكلاهما يستران الحال.

واسمعه مرة أخرى يقول :

يا عين زيدي أبكاك سابك وليفك وبحجة الدخان وأبكى عكيفك

عاطفة تتأجج، ودمع ينهمل، ولكن الرجولة تأبى أن تفضح نفسها فتتذرع بحجة الدخان لتنسب إليه الدمع. والله يعلم أن الدمع مصدره نار القلب لا دخان الموقد.

ولكن هذه العاطفة قد يفلت لجامها أحياناً فتبدو في أنف حالاتها حين يقول:

جيت ولقيت الدار خالية من الأحباب هملن دموع العين يم عتبة الباب

أو حين يقول :

ساعة مشوف أهواى مقبل علي حبلي يقع بالقاع وتموت أيديه

وإن جنحت النفس إلى هواها وانحرفت بصاحبها إلى ما يستنكره الناس والمجتمع ، رافق ذاك الانحراف حج تبريرية تنتحل لتلك المخالفة شتى الأعذار .

اسمع صاحبنا يقول:

قصرى زبونك قصرى زبونك

خللي الخجل ينبان قصرى زبونك

لو ينشدونك لو ينشدونك

قولي قليل الخام لو ينشدونك

الزبون ـ الثوب وقصر الثوب يظهر الخجل ، والمعذرة إن مواد الخام قليلة . وهو يبادر في اختلاق هذه المعذرة خشية نقد المجتمع والمجتمع لا يرحم.

وتقول أغنية أخرى على لسان امرأة :

دقم سترتك لعاد أشتم

بالسوق ألك عدوان كم دوب أعلم

الدقمة هي الزر، وتدقيم السترة كناية عن السير الحسن وهي تخشى عليه شماتة الأعداء إن حاد عن الحادة المستقيمة. والعاطفة إن قويت وكبتت، انفجرت وطفت. وإن انفلتت بلا رحمة أو انضباط أسفت وابتذلت وإن وجدت لها سبيلاً للتنفيس ارتاحت. والبدوية العراقية تجد في الإنشاد وهي تطحن على الرحى .

خير تنفيس غزلي محتشم تروح به نفسها ويدوي صوتها مع دوي الرحى ساتراً ما تقول:

اسمع بالله عليك اسمعها وهي تقول:
ما قوة لتلك يا يوماً على الرحى عينيني
مدري الرحى ثقيلة ولا العشق راميني
وبت القصيد هنا في كلمة (مدري)، وعلام الحيرة ؟ فقد تكون الرحى ثقيلة ... وإنما الهوى، فيما أظن، أثقل ولكن آه من تجاهل العارف. واسمع (مدري) أخرى حين تقول:
ما تنسمع راحاي بس أيدي أدير
أطحن بقايا الروح مدري أطحن شعير.
أترى لو قالت أطحن الروح، لا بقاياها، إلا تضيع قيمة مدري وقيمة البيت معاً، فالروح عهدها بها قد طحنت، وإنما بقايا الروح فيها كل الروعة أعانها الله ورفق بها.
وللروح شأن أي شأن في الأغاني العراقية يتمثل ذلك في روعة ما تقوله البدوية الفراتية:
عذّب جميع أحشاي، مرخص عليها
بس، لا يعذب الروح، كيف؟ أنت بيها
وهي في ذلك تحاري الشاعر الفصيح حين تقول:
يا محرقاً بالنار وجه محبه مهلاً فإن مدامعي تطفيه
أحرق بها جسدي وكل جوارحي واحرص على قلبي لأنك فيه

3) من روح الغناء الشعبي الأردني...

كلما ذكر الفرات والأردن جالت في مخيلتي صورة لطيفة لإطار يدوي جميل يزين طرفي الهلال الخصيب، إذ أن غربي الفرات وشرقي الأردن يمثلان اتصال البادية بالنهرين ، اللذين يحدان ذلك الهلال، والقاطنون في تلك المنطقتين يمثلون بداوة أصيلة جذورها في الجزيرة وفروعها تتناوش الهلال، يتجلى ذلك في الانسجام التام والتشابه الكامل في مختلف مظاهر الحياة بين سكان هاتين المنطقتين وأهل الجزيرة.
ساقنا إلى هذا القول ما يلمسه المرء من وحدة غنائية تامة في تلك البقاع فالغناء الشعبي في شرقي الأردن يجمل في لون واحد هو " الهجيني " من الهجين وهو " الهجيني " بعينه في نجد وهو بعينه أيضاً غربي الفرات وان أطلق عليه هناك (الركباني) من الركب.
اسمع الأردني يقول – مخاطباً محبوبته :
يا شوق حنّا تفارقنا مع السلامة والوداع
يا رب تكبر وتلحقنا من فوق مدموجة الباع
وهل البادية غير الشوق ومدموجة الباع التي ظفرت بخير زينة ألبستها إياها معلقة طرفه بن العبد وللبدوي في الشوق باع ولكنه لا يوغل فهو على حد تعبيره له. له في الهوى لفته، ولكنها لفتة تحدث في النفس لوعة مزمنة.
يا عين لك في الهوى لفتة ما منت عن الزين سليانه
طعم الهوى يا الربع ذقنه من أسهم عيون نعسانة

وعندما يشتد الشوق بصاحبه ويخرج به عن حد الصبر لا يجد البدوي في الناقة تلك الوسيلة التي تحد من جزعه لتوصله إلى مكان هواء فيتمنى وسيلة أسرع اسمعه يقول:

يا علّي طير وأحوم وأشرف على ذيل القرية
وامقد وليفي من النوم وأحبه حبه شفا ويهّ

وليف وأي وليف ... يعطيك البدوي صوره عنه وهو يترنم في هذه المقطوعة " الهجينة "

يا بو شعور حرير سود والوجه ظيّ القناديل
يا بو تنايا تقول برود من مزنة هللت سيل

وصف طالما ألفناه في الشعر البدوي والفصيح حيث يجتمع الضدان ليظهر حسن كل منهما.

وهكذا يسير الهجيني بمقطوعاته القصيرة الرائعة فيعين الحادي في مختلف تنفيساته. اسمعه يخاطب محبوبته وقد تعذر عليه اقناعها بالزواج مع محبتها له لتمسكها بان عمها وفق التقاليد -

يا بنت خذي ولد عمك لقيت اغزيل يسليني
من قبل كنت رضا من الله واليوم صرت قذى عيني

وتعزو الحضارة الآلية تلك المنطقة البدوية بالسيارات والقطارات فتسبب لتلك النفسية البدوية الشاعرة ، حفلة ليحس بها إلا من وقعت عليه وليس أدنى من البدوي في تصوير هذا النشاز الذي حدث فتلمسه في هجنينياته حين يقول :

يا يوما من يصنع الوابور هلي يجفل بعاريني
يا يوما يا صيحة الوابور ترعب بنات الترابيني

فالآلة صخب وضجيج، ونفره البادية شوق ، ونوق، وحداء وشتان بين اللحن والضجة.

4) من الآلم العبقري في الشعر البدوي...

روى أمير الشعراء على لسان شيطان قيس يخاطب صاحبه:

تفردت بالالم العبقرى وأنبغ ما في الحياة الألم

هكذا انطلقت شاعرية المرحوم بهذا التعميم الواسع، ولو جاز لي القياس لقلت وأنبعغ ما في البداوة الالم، فالبداوة قحط في المادة، خصب في الروح، قلة في المعدة، وفرة في الاحساس. ولطالما سميت الصحراء بالدو، والشعر دوةى الحياة الصحراوية، وان البيئة التي انجبت عبقرية قيس لن تضن بعبقريات أخرى تمثل الالم العبقرى في الشعر البدوي.

"نمر العدوان" أمير العدوان يصدمه القدر بفقد زوجته وضحاء، فيهز شارعيته، ويقضي بعدها بقية عمره كما قال زميله بالأمس:

وما أشرف الايقاع غلا صبابة ولا أنشد الاشعار الا تداويا

أمير طالما استقبل الشعراء في بيته، يستقبلهم متفرعا تارة ومكرما أخرى، يلتمس الرباب بعد فقده وضحاء، فيجد فيها وفي الشعر خير صحوة من هول الصدمة، اسمعه يقول:

مديت يدى للربابة أو نيت ونه حزين شارد الذهي ملهوف

أتدري ما هو الون.. الون أنين الرجولة بلا لفظ واضح، لئلا يفضح صاحبه فيصير غلى الولولة والعويل أقرب، ولكن لا بد من الانفجار فاسمعه يخاطب ابنه "عقاب":

انا لو دنو الحساد يا آعقاب من

لخفي دنيني في دنين الذباب

وان غابت الحساد ياآعقاب مني

لحن تالي الليل حن الرباب

على الصاحب اللي فياآعقا بمني

من بعده يا لوعتي يا عذابي

ايه رباب الأمير سارت بك أناملة فوننت مع ونينه، وون معك فبدوت للعوام رنينا وللخواص أنينا.

ويتجسم حب الأمير لزوجته المفقودة في وحيده "أعقاب" فيرى فيه مصدر عزاء وذكرى ونجوى، ولذا تراه لا يذكر وضحاء الا مخاطبا ابنه "عقاب" شريكه في المصيبة، ولكن شتان بين السهمين:

يا اعقاب مالي بخت وانت موجود

صوابك بتم وأنا صوابيه بارود

لروح بالدنيا عامات وآرود

ماالقى طبيب ياعقاب كن خاب ظني

وأي طبيب يعوض رفيقه العمر التي تؤنس والصحراء موحشة وفقدانها يوحش ولو في جنات نعيم.

اسمع ابن العدوان يقول:

يا حيف على أم اعقاب يا حيف يا حيف

يا امبادرة بالزاد للجار والضيف

ويزداد هذيان ابن العدوان فيوهمه في حالات كثيرة بان وضحاء لم تمت، فيجد في تلك الفترات عزاء خاطفا، لا يلبث أن ينتكس بعده، فيقول:

يااعقاب اناجيت المحلة من اغياب

نبهت الخدم يا اعقاب ويا العبيدي

سايلتهم عن صاحبي وين هو غاب

قالوا اهتدى يا نمر ما هو بعيدي

زاير هله يا نمر "بشونة ذياب"

هلحين يلفي والمحبة تزيدي

فيصدق الامير هذيانه ويأمر ابنه عقاب قائلاً:

يااعقاب اسرع فوق ساجوج مهزاب

اكشف خبرمحبوب عيني وريدي

وتعاوده شبه صحوة فلا يرتاب في حالته بل يشك في العبيد فيقول:

يا اعقاب ان كان هرج العبد كذاب

برحله يا اعقاب صك الحديدي

وتروى الرواة ان ابنه "عقاب" عندما كان يرى أباه في تلك الحالة يمتثل امره في الظاهر، ويخرج من عنده ضارباً كفا بآخر ويقول:

يا الله من قلب تزاود به الداء

يا الله من قلب سقيم شقاوي

ويلتفت للوراء وكأنه يقول لأبيه:

أندب وليفك راح ما عاد ترجاه

خلاك بالدينا وحيد خلاوي

وتطول حياة الألم بالأمير، ولكن لا ينقطع له رجاء، فيصور له هذيانه مختلف الوسائل لاسترداد وضحاء، فيصل الذروة في محاولاته حين يقول:

عليوم لو يقبل وليمات ربي

لحط كل المال ويا الدواب

بس أم اعقاب تجلس بحدي

وشاهد عزيز الروح وأنس صحابي

هكذا تحرق النيران القلوب، في تنفيس يبحي لوعة المحزون فيطرب الاذن والقلب والشعور، كان الله بالعون.

شاعر فلسطين المرحوم ابراهيم طوقان

6) فلسطين تقدم شاعرها الى ركب الشعراء

" لم يفتش احد عن الفضائل والأخلاق العالية كما فتش عنها الشعراء، ولم يذعها احد كما اذاعوها، كأنهم في هذه الدنيا رسل حياة وعلماء اخلاق واساتذة تربية. لم يعن احد بالانفعالات القوية عناية الشعراء بها كأنهم من الناس قلوبهم الحساسة واعصابهم المرهفة وألسنتهم الناطقة.

لم يثن احد على البطولة كما اثنى عليها الشعراء فليس شيء أكره اليهم من ان يكون الناس جبناء انذالا. لم تعن احد بالحكمة ينتزعها من الحياة لا من الكتب انتزاعا، فيفرغها في عبارة رشيقة متينة موزونة مقفاة ليسهل حفظها والاستشهاد بها كما فعل الشعراء كأنهم من الناس ادمغتهم المفكرة. لم يعن احد بالجمال عناية الشعراء به ولم يستوح احد العقل والقلب والغرائز كما يستوحيها الشعراء. هم مرآة عصرهم تتجلى فيها الحقائق واضحة، وهم الفصحاء البلغاء، اللغة لغتهم والقول ما قالوا.

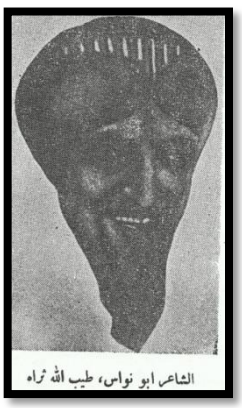
الشاعر ابو نواس، طيب الله ثراه

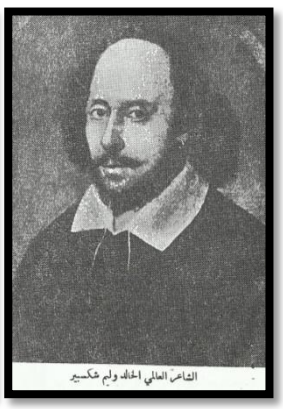
الشاعر العالمي الخالد وليم شكسبير

اذا عرفنا ذلك فلا عجب ان تفخر كل امة بشعرائها، ونستشهد باقوالهم كأنها ايات منزلات.

ولعل العرب اعرف الناس بقدر الشعر والشعراء" .

واهل فلسطين اعرف الناس بقدر (ابراهيم) وشعره.